

علوم التربية

بين القديم والحديث

في التربية والتعليم

بقلم حضرة الأستاذ عبد الحميد حسن

المفتش بوزارة المعارف

في عالم التربية والتعليم كلمات جرت بها الأقلام ورددتها الألسنة،
فلات جو كثير من الممالك وانتشرت حتى وصل صداها الى أسماعنا .
ومن تلك الكلمات « التربية الحديثة » و « الطرق الحديثة » و « الاتجاهات
الحديثة » وغيرها . فما هذا النظام الحديث في التربية ؟ وما أصوله ؟ وما
غاياته ؟ وما وسائله ؟ وما أثره ؟ وما نصيب مدارسنا منه ؟ لعل هذه
الأسئلة أو شبهها مما يجول بخاطر كثير من المتصلين بالتعليم . وقد يعجب
بعضهم أن يكون هناك مستحدث في التربية وطرق التعليم بعد طريقة
هربرت ذات المراتب المعروفة التي تنفذ من عهد بعيد تنفيذا دقيقا في
جميع مواد الدراسة ؛ وبعد كتابة الدروس في مذكرات تحيط باطرافها
وتضم من المادة العلمية الشارد والوارد ، ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة
مما سينطق به المعلم في الدرس الا أحصتها ، وبعد إجهاد المعلم نفسه في
اللقاء والشرح مما يملأ به أسمع التلاميذ وهم جلوس لا يطرقون ،
وبعد هذه الطريقة الاستنباطية أو شبهها التي تذكر الامثلة أولا ثم
تدون النتائج والقواعد بعد مناقشة طويلة أو قصيرة ، وبعد استخدام
الصور ذات الألوان والرسوم ووسائل الايضاح التي تمثل مناظر الطيور

ومخالبها، وأشكال الحيوان وأنواع النبات، التي يفيض المعلم في شرحها ووصف وقائعها؛ وبعد هذه المناهج التي لم تترك من العلوم فرعاً إلا حاولت أن تنافس واضعيه وكبار المؤلفين فيه. فهل بعد هذا مستحدث؟ وهل وراءه من جديد؟

قد يجول بالخاطر شيء من ذلك أو نحوه. وكل هذا يدل على حقيقة ماثلة وهي أن هناك اتجاهين متعارضين هما الاتجاه الحديث والاتجاه الحال الذي تسير عليه نظم التعليم عندنا.

فلنقف من هذين الاتجاهين موقف الشرح والوصف ثم نحتكم إلى الأصول التي سادت والحقائق التي ذاعت في التربية لنصل إلى حكم صحيح (١) أما التعليم في نظامه الحال واتجاهه السائد الآن فيتضح حينما نستعرض مآثره عليه المدارس من وجوه أربعة وهي: المعلم، والمتعلم، والمناهج، والغاية المنشودة.

(١) فلما المعلم فقد رسم له الطريق وحددت له الغاية وهي أن يعد دروسه واحداً بعد الآخر على حسب المنهج وأجزائه ثم يتقدم بأساليبه المختلفة فيستعرض بضاعته على الأسماع، أو على الأنظار أحياناً، مستعملاً من ذلاقة اللسان وقوة البيان ما وهب له الله. ولا يزال كذلك حتى يثبت الحقائق في العقول ثم يطالب التلاميذ بالاستدكار والاستظهار استعداداً للاختبار المتتابع في مظاهر شتى شفوية وكتابية، وارتقاباً لليوم المشهود وهو يوم الامتحان العام (الذي يكرم فيه المرء أو يهان) كما يقولون والمعلم في كل هذا هو الذي يقوم بالعبء التعليمي أو التلقيني وهو البوق الذي يذيع الحقائق وهو المنبع الذي يفيض المعارف وهو الفاعل لما يريد في كل المواقف وهو الذي يقود الأفكار ويصرفها كما يشاء.

على أنه يحمل بنا ألا نفسي أنه يتحمل في كل هذا من الصغاب ما يضيق ومن المتاعب ما ينهك جسمه ويضعف نظره ويفت في قواه إن كان من المعلمين المخلصين . . .

ولعل ما يناله من عناء لا يقل عما يصيب التلاميذ وعما ناله السبورة في حجرة الدراسة من محو وإثبات ، وعما ناله الأوراق والمحابر والأقلام من عمل في التدوين والإصلاح . كل هذا في سبيل الواجب التعليمي الذي يبذل المدرس جهده في إتمامه ويتابعه التلميذ في التهامه . هذا الواجب الذي يرمى إلى حشد الحقائق ونقشها على صفحات العمول لتحقيق المثل المعروف « التعلم في الصغر كالنقش على الحجر » حتى يصبح التلميذ جعبة تفيض بدرر الألفاظ وساحة تموج بذخائر الحقائق .

(٢) وأما التلميذ فحسبه أن يجلس في حجرة الدراسة ساكناً خاضعاً للنظام يستمع لما يفوه به المعلم ثم يتأبط من الكتب والكراسات في آخر اليوم المدرسي ما يتوء بحمله ليستذكر ما سمع ويسطر الإجابة عن الواجبات المختلفة التي تستنفد ما بقى له من ساعات اليقظة وتطغى على ساعات راحته ورياضته . وهو في كل هذا أشبه بجهاز يتلقى ويتقبل مرغماً ، أو أسطوانة مرنة تطبع عليها الدروس شتاء حتى إذا تغير الجو وجاء الصيف تغيرت المعالم فطمست الألفاظ وذهبت المعلومات في طيات هذه العجينة التي صنعت منها الأسطوانة . ولا يعلم أحد ماذا تركت هذه الدروس من أثر في تكوين التلميذ وثقافته وإعداده للحياة . وإنما كان الذي نعليه والذي يحس به التلميذ نفسه هو أنه في المدرسة بمنزلة عن الحياة التي يشترك إليها وعن العمل الذي يتحرك له قلبه ويتخرق ميوله وغرائزه شوقاً إليه .

(٣) وأما المناهج فحسبك أن تعلم أنها كتاب مرقوم تتلى صفحاته

في أيام معلومة من السنة الدراسية حتى إذا انتقلت من مدرسة إلى أخرى في أطراف القطر فإنك ستسمع الشيء نفسه يتلى على التعاقب فيخيل إليك أنه رواية يظاف بها وتمثل فصولها أينما حللت وكأن ما يعرض من فصولها ومناظرها في إحدى البيئات لا يجوز أن يتسرب إليه التغيير بل يجب أن يلتقي بنصه في البيئات الأخرى، على ما هنالك من اختلاف في المظاهر والمناظر والمطالب والاستعداد

(٤) وأما الغاية المنشودة فواحدة وهي امتحان تتسابق فيه الأقلام وتبارى النسب المئوية، والفوز لمن ضرب بسهم في الأرقام العالية والدرجات العددية الرفيعة. أما القدرة الصحيحة والميول القطرية والمواهب الكامنة والحياة نفسها والاستعداد لها والاتصال بها وتحقيق ما تنشده فلم ينل شيء من هذا حظله من العناية وليس له في ميادين التعليم نصيب.

هذه هي الحال السائدة في التعليم. والظاهرة البارزة فيها هي أنها أغفلت عاملين أساسيين هما الطفل واستعداده وميوله ونشاطه ومطالبه ثم الحياة والاستعداد الصحيح لها.

(ب) فنتظر بعد هذا إلى مطالب التربية الحديثة واتجاهها وغايتها: نسمع الآن بكثير من الطرق الحديثة مثل طريقة «دالتون»، و«المشروع»، و«دكرولي»، و«وينسكا»، ونسمع أيضاً بالنشاط الذاتي وضرورة استخدامه وتغذيته، و«بالمشكلة» التي ينبغي أن تدور حولها التعليم وتتجه جهود المتعلم لحلها، وبأن النشاط يجب أن يكون موجهاً لغاية تصوب نحوها الرماية. نسمع بهذا وبكثير من مثله. ولسنا نريد الإفاضة في شرح كل هذا فميدانه واسع ولكل طريقة أو فكرة من هذه

قواعدها الخاصة بها ودعائهما التي ترتكز عليها. ولكنها كلها أو معظمها ترمى إلى غاية واحدة وتلتقى في ساحة واحدة وتصطبغ بصبغة واحدة وتسير في اتجاه خاص هو الذي يميز التربية الحديثة ويظبعها بطابع تنفرد به عن القديم.

(١) وأول هذه الدعائم أن تكون المدرسة حياة ينمو فيها الطفل نمواً طبيعياً، ولا يتحقق هذا إلا إذا كانت المدرسة صورة صحيحة للحياة وللبيئة التي تحيط بالطفل قوامها الأعمال الحيوية المختلفة التي تثير الاهتمام وتوقظ النشاط وتدفع الأطفال إلى مواجهة الحياة وحل مشاكلها ولا ينكر إنسان أن الحياة العملية وما فيها من مشاكل ومعضلات وما يفيد الفرد فيها من خبرة وتجارب، وما يصادف من أسباب لها نتائجها وتنتائج تتطلب معرفة أسبابها، وما يقوم به من أعمال تتطلب بذل الجهد وإرهاق الحواس، والتفكير في حل الصعاب، كل أولئك له الشأن الأول في إعدادة للحياة، فالحياة هي التي تعلم الحياة وهي التي تعد للحياة، ولسنا في حاجة إلى دليل على هذه الحقيقة فهو على ألسنة الجميع من المتعلمين، وهم يقررون أنهم لم يدركوا للحياة ومشاكلها ومطالبها معنى إلا بعد أن أتموا الدراسة وخرجوا إلى الميدان العملي في الحياة فازدادوا خبرة على مرور الأيام بما عملوا وما صادفوا، وكلما ازدادوا تعمقاً في الاتصال بالحياة ازدادوا بها علماً ولها استعداداً

ولعل هذا القول يوجه نظرنا إلى الصلة بين المدرسة والحياة، ويجعلنا نتساءل عن قيمة المدارس في إعداد الفرد للحياة إذا كانت الهوة بينهما وبين الحياة الحقيقية سحيقة إلى هذا الحد، فالمدرسة إذا بعدت عن الحياة الصحيحة الخارجية كان محالاً أن تعد للحياة وكان الوقت الذي يقضيه فيها المتعلم قليل الجدوى، اللهم إلا إذا غيرنا الحقائق الثابتة وهي أن الغرض

من المدارس ومن التربية هو الأعداد للحياة ، ورسنا للمدارس غاية أخرى لا يقول بها المربون الآن

ولننظر إلى مدارسنا ، أهى صورة من الحياة التى يجب أن يحياها التلاميذ ؟ لا إخال الجواب إلا سلبياً ، فهذه القيود الدراسية والمواد التى لا تدور حول محور من حياة الطفل ولا تربطها بأواصر الصلة ، وتلك الجدران التى تحول بين التلميذ والحياة ، وهذه المقاعد التى تشل الأجسام وتقيد العقول ، وهذه الدروس النظرية الإلقائية المتتابعة ، وتلك الطرق السردية أو الحوارية التى يدير المعلم رحاها ، كل هذا إنما هو عمل صناعى وليس هو الصورة الصادقة للحياة

وإن تحقيق القاعدة التى نحن بصدددها وهى جعل المدرسة حياة أو صورة منها يستدعى أن تكون المناهج مقتبسة من الحياة جارية على نهجها وأن تكون المواد الدراسية وحدة متماسكة دائرة حول الحياة ومظاهرها ومشاكلها مما يألف الطفل وما يعمل لو وسع له المجال ، وأن تكون طرق البحث والدرس والعمل هى الطرق التى يسلكها الناس فى حياتهم ويشتاق الأطفال لتنفيذها ، فهل حققت مدارسنا شيئاً من هذا ؟ ترك الجواب لمن يود أن يجيب

(٢) والدعامة الثانية : هى الالتجاء إلى النشاط الذاتى للأطفال وإلى دوافعهم الباطنية فهى القوة الفعالة فى النمو الصحيح ، فينبغى فتح ميادين العمل أمامها حتى تنال الغذاء الصالح وتنمو نموا ذاتيا طبيعيا

وهذا النشاط شبيه بما فى البذور النباتية من حياة كامنة واستعداد للنمو والإثمار ، ولا يتطلب هذا الاستعداد إلا أن نغرس البذور فى التربة الملائمة ثم نمدّها بالماء فى فترات خاصة لتستعين به على امتصاص الغذاء حتى تتفتح وترعرع وتثمر ، وكذلك نشاط الطفل فى حاجة إلى أن نمدّه

له البيئة الصالحة وأن ندعه يحصل ما ينفعه من غذاء فيما يحيط به ويعمل بنفسه على تنمية قواه وإنضاج مواهبه وشحذ عقله ، والجو الذي ينمو فيه هذا النشاط ليس هو الحجرات المقفلة الخالية من مظاهر الحياة ، ولا هو هذه الدائرة المدرسية الضيقة الضائلة فيما توخى من أغذية للنشاط ، ولا هو هذه الحياة الجلوسية التي ترهف فيها الأسماع وترهق العقول والأجسام من الإصغاء الممل الذي لا يوافق حياة الأطفال ولا يستثير نشاطهم ولا ينال منهم إلا إغراضاً ونفوراً . ولكنه هو الحياة الصحيحة بما فيها من عمل وتعاون وحركة ونشاط وتبادل أفكار إلى غير ذلك مما هو من مظاهر الحياة العمالية ، ومما له أعظم الأثر في تكوين الفرد تكويناً تاماً نافعاً .

(٣) والدعامة الثالثة : أن يكون عمل التلميذ وبحته وجهوده موجهة نحو غاية ، وأن يشعر الطفل بأن هناك غرضاً يرمى إليه ومرمى تسوقه نفسه إلى الوصول إليه ومشكلة يجب أن يتجه الجهد نحو حلها ، وهذا الغرض يجب أن يكون وليد تفكيره وحاجاته ، ولا ينبغي أن يدفعه المعلم دفعا للسير وراء غايات لم تتجه إليها نفسه وليدة الحاجة التي تجول بخاطره ، فإن ما يجول بخاطر المعلم من الغايات ليس من الضروري أن يصلح حافزا لنفس الطفل أو مشيراً لنشاطه ، وغايات المعلم كثيراً ما تكون مقتبسة من الكتب وخاضعة للتنازع وأجزائها أو لنظم مدرسية لا تتمشى مع عقل الطفل ولا توافقه نفسه .

أما حمل الطفل على أن يسير إلى غير غاية مفهومة لديه أو لغاية لا يدرها فإنه لا ينتهي بقائده فهو أشبه بسير الهائم على وجهه في بيداء ، أو المسوق قهراً عنه لا يشعر بدافع نحو العمل ولا يلبث أن تنصرف نفسه عنه ، وإذا سار فيه فإنما يسير مرغاً طوعاً للأوامر المدرسية ، ولا يكون لعمله أثر نافع .

وإن ما نقصده هنا إنما هو الغرض الذى يؤتسم أمام التلميذ أو يرسمه هو لنفسه ولا تريد ذلك الغرض الذى يرمى إليه المعلم ويسطره بعض الطلاب فى مذكراتهم ويقسمونه قسمين خاص وعام ثم يظنون ويسمبون ويبالغون فى تمييقه فى غير فائدة . فالغرض هنا هو الحافز وهو الموجه وهو الباعث على الابتكار والتفكير فى حل المشاكل . وهذا هو الذى يشعر به كل عامل فى الحياة

(٤) والدائمة الرابعة هى الحرية التى يجب أن يشعر بها الطفل فى عمله وتفكيره ونشاطه ، فإننا إذا صدمنا حرية الأطفال فقد شللنا ، وهم وأخذنا نفوسهم وكبتنا دوافعهم الباطنية ، فالحرية هى الميدان الصالح للنمو الصحيح

هذه هى طائفة من أهم الدعائم التى تركز عليها التربية الحديثة ، وإنك لترى فيها ظاهرة بارزة وهى أنها مثال للحياة الصحيحة ، فالمدرسة حياة وثيقة الاتصال بالحياة الحقيقية ، حياة تحفزها الغايات التى تتجه إليها النفس رغبة راضية معطشة ، حياة أقل ما فيها أنها تعد للحياة أو بعبارة أدق هى لون من ألوان الحياة ومرحلة من مراحلها يقضيها الأطفال فيما لا تريد أن تسميه مدرسة إلا ارتضاء لما جرى عليه العرف بل تسميه ميداناً من ميادين الحياة .

لستنا بعد كل هذا فى حاجة إلى أن نقاضل بين التربية الحديثة وبين النظام التعليمى السائد فى مدارسنا فالرجحان واضح .

على أن القارىء إذا أراد أن يحتكم إلى شئ يزداد به اطمئناناً فإننا نحتكم معه إلى حكم لا يجادلنا فى أنه الحكم الذى ترضى حكومته . وذلك هو معنى التربية والغرض منها ، ولا يجادلنا القارىء أيضاً فى أن هذا يتركز

في كلمات ثلاث وهي «إعداد الطفل للحياة» فمعنى التربية هو إعداد الطفل للحياة، والغرض منها أيضا هو إعداد الطفل للحياة، أو بعبارة أمثل وأبعد عن التحكم في الطفل، هو تمكين الطفل من الاستعداد للحياة. فالطرق الحديثة ودعائهم وقواعدها كاملة في هذه الكلمات الثلاث وهي «الطفل»، «الحياة»، «والصلة بينهما»، وهي إعداد الأول للثانية. وتحقيق هذا الغرض يتطلب مراعاة الطفل والالتجاء إلى الحياة في تنميته وتمكينه من الاستعداد لها، وكل هذا يستلزم أن نجعل الحياة هي المدرسة أو المدرسة حياة، وأن نلجأ إلى الطفل فنعرف ميوله ودوافعه النفسية، والأغراض التي تجول بخاطره وتحفز به إلى العمل، وإيضاح هذه الكلمات بإسهاب ينتهي بنا إلى ما أجمعنا.

إخالك أيها القارئ قد اطمأنتت أو ازددت اطمئناناً بالطرق الحديثة وبأن أثرها أقوى وأقوم من وجوه شتى. فماذا نحن فاعلون بعد هذا؟ وماذا عسى أن يعمل المعلم؟ وأي طريقة من الطرق الحديثة يتبع؟ والجواب على هذا هو أن اتباع طريقة بعينها ليس إلتقيدا والتقليد ليس الطريق المأمون، وأجل منه وأمثل أن نرجع إلى الدعائم الأساسية الكامنة في ثنايا الطرق الحديثة فنبنى على قواعدها الطريقة الملائمة لحياتنا وبيئتنا، الموافقة لنظامنا ومطالبنا، فإذا صحت العزائم على تنفيذ هذا، فالسبيل واضحة والطريق ممد قويم.